

أساطين الغرف على الناي - لجورج ساند

بقلم: الدكتور عبد السلام البحري

صاف رائق وقدرة على التصوير خارقة • كما كانت لها نظريات أدبية ثابتة راسخة أصيلة ، الأمر الذي جعلها تترك آثارا إنسانية عميقة • ولا أظن أن هناك أحدا من متحدثي الفرنسية أو ممن درسوا آدابها الا وبدأ حياته وهو بعد صبي يافع بقراءة روايات جورج ساند ، ولا سيما تلك التي تتحدث عن الفلاحين وما يتسمون به من طهر ومثالية وتфан في الاخلاص ، والحب والمودة والوئام وانكار الذات وغير ذلك من المشاعر الانسانية السامية التي تسود بيوتهم في المقاطعة التي عاشت وترعرعت فيها تلك الأدبية وهي مقاطعة « بيزي » ، وذلك مثل روايات « البركة المسحورة » و « فاديت الصغيرة » « وفرانسوا اللقيط » الخ • • • ولطالما أغرت جورج ساند الباحثين بالتعمق في أغوار نفسها والسطور التي خطتها يراعها لمعرفة حقيقتها ، ومن أهم هؤلاء

منهج البحث : أسباب اختيار هذا الموضوع للبحث - حياتها - الغراميات الشهيرة التي تحمل اسمها - استعراض لأشهر مؤلفاتها - مفهوم الاشتراكية لديها - مقتطفات من روايات ما كتبت - التأثير الأدبي الذي خلفته •

اسباب اختيار هذا الموضوع للبحث :

لماذا جورج ساند ؟ لماذا نختار هذا الموضوع بالذات ولم تكن حياتها مثلا يحتذى بل عاشت حياة ماجنة صاخبة جعلت المجتمع الأوربي كله يتحدث عنها حديثا لا يتسم بالاحترام ولا بالتقدير وبلغت بعض مغامراتها الغرامية من الشهرة ما جعلها هي نفسها قصصا أدبية رائعة يتفانى الكتاب والنقاد في تصويرها لمهاجمتها أحيانا وتبريرها أحيانا أخرى • ومع ذلك فقد تركت جورج ساند آثارا أدبية رائعة لأنها كانت أدبية موهوبة بالطبيعة ، ذات مشاعر مرهفة وأسلوب

رائدة من رواد البحث الأدبي في مصر وهى
استاذتنا الأدبية الدكتورة درية فهمى التى كتبت
رسالتها فى الدكتوراة التى قدمتها الى السوربون
سنة ١٩٣٥ عن « جورج ساند » .

حياتها :

ان حياة جورج ساند فى حد ذاتها قصة ينبغي
الافاضة فى سردها

وقد لفتت تلك الحياة أنظار الكثير من الكتاب
والنقاد الفرنسيين لما فيها من طرافة وغرابة
وغزارة ، فخصصوا كتباً برمتها لبحثها وتحقيقها
بصرف النظر عن ما تركت تلك الكاتبة من مؤلفات
خصبة . ومن أهم هؤلاء الكتاب أندريه مورا .

اسمها الحقيقى هو أورورديان . وأورور
اسم شاعرى جميل معناه الفجر . والطريف أن
كل فتيات أسرتها يحملن هذا الاسم . وتنتمى
جورج ساند الى أسرة تجمع بين دم النبلاء ودم
السوقة . واذا كان كثيرات ممن يحملن اسمها
من نساء أسرتها قد جئن الى هذا العالم نتيجة
حب غير شرعى فهى نفسها مثل لذلك . فقد كان
أبوها موريس ديبان من أسرة عريقة أما أمها
فكانت ممثلة من الدرجة الثالثة فى الوقت الذى
كانت فيه هذه الطبقة تمثل حثالة المجتمع . وكما
يحدث عادة فى مثل هذه الحالات ، لم تشأ أمه ،
وهى سيدة وقور تعتز باستقراطينها ، لم تشأ
الاعتراف بحب ابنها لهذه الممثلة ولا بزواجه بها
فيما بعد . ولذا فقد وجد الابن نفسه مضطراً ،
لكى يستدر عطف أمه ، الى أن يرسل لها الطفلة
أورور حتى تعطف عليها وتحس بالأذن لها
ومن ثم تبارك زواجه . وهذا هو ما حدث بالضبط .
الا أن ما حدث بعد ذلك هو أن الجدة أرادت

أن تربي الطفلة على طريقته بعيداً عن تأثير أمها
وما قد تنفثه فيها من أفكار غير صالحة . وهكذا
نشأت علاقة حب شديد بين أورور الصغيرة
وجدها ، وبالتالي تولدت علاقة فاترة بين الطفلة
وأمها ، حتى أنه لما غادرت الأم قصر نوهان فى
مقاطعة بيرى ، مقر الأسرة ، وعادت الى باريس
بعد وفاة والد أورور لم تشأ الفتاة أن ترافقها
وفضلت البقاء مع جدتها .

وقد اتخذت أورور منذ صباها طباع الرجال
وصفات رجل الأعمال لأن جدتها كانت تكلفها
بإدارة ضيعتها . وأحبت حياة الفلاحين بل وعاشت
تلك الحياة واختلطت بها واستمتعت بها كل
الاستمتاع ، ولذا فليس من مجانبه الصواب فى
شئ أن نقول انها هى نفسها فلاحه من مقاطعة
« بيرى » رغم أرستقراطيتها .

ورغم أن حياة أورور ديبان تتسم بالفوضى
ولابد لمن يدرسها من أن يشعر بالدهشة وأحياناً
بالاشمئزاز من رعونتها وعربدتها ، الا أنها
اتخذت لنفسها منذ فجر صباها مبدأ لم تحد عنه ،
وهو أن الحياة يجب أن تبنى على الحب ، الحب
الحقيقى المتفانى المشيد على الاخلاص والولاء .
ولذا نراها ترفض الزواج بمن اعتقدت أن حبها
لهم غير كاف لإنشاء علاقة زوجية سليمة ، وفى
ذلك تقول : « أعتقد أن أحد الطرفين لدى الزواج
يجب أن يتنازل تنازلاً تاماً عن نفسه وأن ينكر
ما ليس ارادته فحسب ، بل كذلك آراءه ، وأن
يقرر أن يرى بعينى الآخر ويحب ما يحب » .

ولقد كان ذلك هو موقفها حين تزوجت عن
حب كازيمير دى ديفان وأصبحت تدعى مدام دى
ديفان . ولقد كان ينشب بينهما من حين لآخر

في السنوات الأولى بعض الشجار ما يلبث أن يزول فقد كانت في ذلك الحين تحب ما يتسم به من صفات طيبة وتعجب باخلاصه وأبوته الحانية على ابنتها موريس وكان من دلائل هذا الوفاق أنهما كانا يوقعان على مراسلاتهما معا باسم « الاثنان كازيمير » .

ولكنها ما لبثت أن شعرت بعواطفها تتغير ، وربما كان السبب في ذلك كامنا في النصيحة التي أسدتهما بعد سنوات لأخيها غير الشقيق هيبوليت حين كان على وشك تزويج ابنته اذ قالت له : « احرص على ألا يعامل زوج ابنتك بغف في الليلة الأولى للزواج فكم من ضعف في الأجهزة وولادات عسرة لم يكن لها من سبب الا هذا لدى السيدات الرقيقات . . . » وقد بدأت العلاقة بزوجها تتغير وبدأت مدام دي ديفان تشعر بأمراض غير حقيقية تبعدها عن زوجها من ناحية . ومن ناحية اخرى انطلقت كالأطفال تمارس هواية الجرى والمرح واللعب وسط الحقول .

وفي هذا الجو تعرفت أورور بصديقها الأول أوريليان دي سيز وتحابا وتلاقيا سرا مرات عديدة دون أن تصل العلاقة بينهما الى حد الحياة الزوجية . وحين ضبطهما الزوج ذات يوم متعاقين ارتمت على قدميه وبكت وأكدت له أنها لم تخنه قط . ثم ما لبثت أن شعرت بهذا الحب يفتر فقطعت علاقتها بأوريليان فورا وان كان نوع من الود قد استمر يربط بينهما مدة طويلة كما حدث دائما في علاقاتها المختلفة .

وكان حبها الثاني هو ستيفان دي جرانزاج . ومما دفع أورور نحو هذا الحب الجديد ملاحظته من أن زوجها قد بدأ يعقد علاقات مع المربيات ،

والخدمات في بيتها . ولذا فلم تتردد في علاقتها هذه في ألا تعمل أى حساب للاخلاص له . وقد رزقت بعد ذلك بفتاة تدعى « سولانج » . ورغم أن كازيمير زوجها لم ينكر أبوته لها ولم يبد طيلة حياته أى شك في نسبتها اليه الا أن ستيفان كان على يقين من أنها ابنته وكذلك كثيرات من صديقات ساند بل وساند نفسها .

وما لبثت العلاقة بين الزوجين أن قطعت تماما وبصفة نهائية . وقررت أورور مغادرة بيت الزوجية وترك الطفلين موريس وسولانج في رعاية أحد الأصدقاء . وفي باريس استأجرت بيتا متواضعا وقررت تجربة حظها في دنيا الأدب . ولما كان النظام المالى الذى اتبعته في زواجها هو النظام المشترك فقد كان لزوجها بمقتضى ذلك الولاية على مالها . وبعد لآى استطاع أخوها اقناعه بأن يرسل اليها في باريس من حين لآخر ما تطلبه من مال .

وكما يحدث عادة للمشتغلين بالأدب لاسيما في مطلع حياتهم الأدبية ، لقيت أورور صعوبات جمة وعرفت الجوع والحرمان . ولكنها صمدت لجميع هذه الصعاب وأصررت على الاستمرار في هذا الطريق . وكانت تعود من حين لآخر الى ضيعتها في نوهان لرؤية الطفلين .

وما لبثت الأقدار أن وضعت في طريقها شابا في مطلع حياته نحيل الجسم شاحب الوجه ، كان يريد هو الآخر أن يجرب حظّه في دنيا الأدب هو جول ساندو ويمت هو الآخر الى مقاطعة « بيرى » . وشعرت أورور بحب جارف يدفعها نحو هذا الشاب الذى كان يصغرها بعدة سنوات وشجّعته على مشاركتها الحياة . وكان حبها له ،

كما حدث فى جميع قصص الحب الذى تلتته ،
مبنيًا على شعور الأمومة والحنان فكانت فى وقت
واحد عشيقته وأمه وممرضته •

واستطاعت ، بمساعدة أحد الأصدقاء ، أن تجد
عملا منتظما فى جريدة « الفيجارو » التى كانت
فى بداية نشأتها وذلك بمساعدة صاحب الجريدة
نفسه وهو من جيران ضيعتها فى « نوهان » واسمه
لاتوش • وقد ظل يقدم لها المساعدات ويكن لها
الحب مدى الحياة • وهكذا استطاعت أن تقف على
قدميها بعض الشيء وتحمل اللحظات التى يرفض
فيها زوجها مدها بالمال • وكانت بطبيعة الحال هى
التي تتحمل جميع نفقات حياتها مع جول ساندو
الذى لم يكن لديه من المال قليلا ولا كثيرا بل
وكان مستسلما للرخاوة والكسل •

ثم ما لبثت أن وجدت له عملا معها فى نفس
الجريدة وبدأ الاثنان يكتبان • وصادفت أورور
مشكلة الاسم الذى تنشر كتاباتها به • ولقد
نصحتها كل من أمها وحمايتها بعدم الكتابة تحت
اسم زوجها ، وكذلك لم تكن اسرتها لتقبل أن
تنشر تحت اسم ديبان • فكان لزاما عليها أن
تختار اسما أدبيا • ولقد وقع اختيارها على اسم
جورج ساند اشتقاقا من اسم « ساندو » • فكانت
هى وصديقها يوقعان معا على المقالات باسم ج •
ساند •

وكانت مشكلة جورج ساند الأولى هى بعدها
عن طفليها • ولذا فما كاد يستقر بها الحال فى
بيتها الجديد مع جول ساندو حتى أحضرت إليها
الطفلة سولانج • أما موريس الذى كان شديد
التعلق بها فقد أدخلته فى مدرسة داخلية •
وساد الوثام فى البيت لبعض الوقت لأن ساندو

أحب الطفلة سولانج حبا شديدا •

وبدأت جورج تكتب بنشاط كبير • وكم من
مرة كانت تترك جول ساندو مستغرقا فى نومه
وتقضى الليل بطوله فى الكتابة • وهكذا أتمت
قصة من خمسة أجزاء هى « الوردى والأبيض »
التي تتسم كجميع قصص ساند بجمال الأسلوب
والتحليل وإن كان صديقها المخلص لاتوش لم
يكن يرى ذلك •

وكانت أول رواياتها التي لقيت نجاحا وجعلت
اسمها يتداوله المتحدثون والقراء هى رواية
« انديانا » التي وقعت بها باسمها الجديد « جورج
ساند » دون اسم جول • وتقول ساند فى مقدمة
هذه الرواية :

« ان انديانا اذا أصرت على أن تشرح كل شيء
فى هذا الكتاب فذلك لأنها نموذج • انها المرأة ،
الكائن الضعيف التي تتحمل عبء تجسيد العواطف
المكبوتة أو اذا شئت العواطف التي يمنحها
القانون • انها الارادة فى مواجهة الضرورة •
انها الحب الذى تتخبط جبهته العمياء بجميع
عوائق المدنية » •

وكانت « فالتين » بطلة قصتها الثانية هى الأخرى
امرأة من النبلاء خاب حظها فى الزواج فأجبت
ابن احد فلاحى ضيعتها • فكانت القصتان
مستوحاتين رأسا من حياتها وتجاربها الخاصة •

ولقد منحها صديقها المخلص لاتوش شقته فى
رصيف « مالاكى » وهى الشقة التي ظلت تعيش
فيها بعد ذلك • واشتدت وطأة المرض على جول
ساندو فقد كان مصدورا وبدأ الجو يتغير بينهما
فقد كان كسولا لايحب العمل رغم أنها كانت
تحثه عليه وتشجعه دون جدوى • وكانت هى

حريصة على حريتها كل الحرص فلم تكن تسمح له بالتسلط عليها .

وفي هذا الوقت تعرفت جورج بالممثلة ماري دورفال عشيقة الشاعر المعروف ألفريد دي فيني . وظلت أوامر الصداقة بينهما قوية حتى بعد موت ماري حين تولت ساند رعاية أولادها من بعدها ورغم معارضة ألفريد دي فيني لهذه الصداقة فلم يكن يحب ساند وكان يخشى أن تفسد عليه اخلاص ماري له .

كان لابد لساند ان عاجلا وان آجلا من أن تصارح نفسها بأنها ملت العيش مع صديق مريض كسول لا يمنحها أى شيء . ولما عادت بدونه ذات مرة الى ضيعتها في نوهان أحست براحة شديدة ولذا فكان لابد من القطيعة . وذات يوم نصحته بالسفر الى ايطاليا للعلاج ودفعت له نفقات هذا السفر . وكان هذا هو ما قصه فيما بعد جول ساندو نفسه الى بول دي موسيه شقيق عشيقها القادم الشاعر المعروف ألفريد دي موسيه . ولم تمنع هذه القطيعة ساند من مواصلة عطفها على جول ساندو كصديق فكانت توصي به الأصدقاء وتتبع أخباره من بعيد باهتمام شديد . ولقد استاء الكثير من رجال الأدب المعروفين في ذلك الحين لهذه القطيعة وكانوا جميعا يدون عطفهم على جول ساندو واشمئزازهم من تصرف ساند ، ومن هؤلاء الروائي المعروف « بلزاك » الذي يقول في خاتمة خطاب له الى صديقه مدام هانسكا في آخر مارس سنة ١٨٣٣ : « لقد قابلت أمس ساندو ، وكان في حالة يأس شديد . تلك هي كاتبة « فالتين » و « انديانا » .

ليليا :

ولم تكن تحققتها التالية « ليليا » سوى اعتراف طويل بثورة عواطفها وما تشمر به من نفور جسدها من عشاقها . ويجب ، اذا أردنا دراسة مشاعر جورج ساند في هذه الفترة ، قراءة القصة الأصلية التي نشرت سنة ١٨٣٣ لا القصة المنقحة التي حذفت منها جورج فيما بعد أجزاء كثيرة حين أسفت فيما بعد لأنها كشفت عن الكثير من نفسها . لقد وجدت الكاتبة نوعا من السلوى الحزينة في التعبير عن خيبة أملها في الحب وتحليل أسباب ذلك .

ان ليليا امرأة تنكر الحب . انها جميلة ورفيعة المشاعر ولكنها باردة كتمثال من الرخام . كيف يتسنى لها اذن أن تخرج من هذا الرخام الذي يقيد . لقد حاول ستينيو ، الشاعر الشاب الذي يحبها ، أن يحرك عواطفها دون جدوى . وفي هذا يقول : « ان ليليا ليست كائنا مكتملا . انها ظل ، انها حلم أو فكرة على أكثر تقدير . وحيث لا يوجد الحب لا توجد المرأة » .

ولقد حاولت جورج بعد ذلك أن تعقد علاقة حب مع الكاتب المعروف بروسير مريميه مؤلف قصة « كولومبا » المعروفة ولكنها فشلا معا في خلق هذا الحب ومرت ساند على اثر ذلك بأزمات عاطفية عنيفة ترددت فيها بين الانتحار ودخول الدير .

الحب الشهيد : ولم تلبث ساند أن التقت بالحب الذي قدر له أن يخلد في الكثير من الأعمال الأدبية الرائعة وأعنى به حبها للشاعر ألفريد دي موسيه شاعر « الليالي » المعروف . ولقد التقت به في حفل عشاء وكان كمعظم عشاقها أصغر

منها بعدة سنوات مريضا شاحبا مفلسا • ولكنه لم يكن جديدا فى دنيا المرأة مثل عشيقها الأول جول ساندو بل كان عريدا سكيما مدمنا لتدخين الأفيون • وما لبث أن قدم ليعيش معها فى الشقة التى اهداها لها « لاتوش » • ولقد بدأ علاقه بها باعجابه بقصتها « انديانا » وأهداها بعد قراءته لتلك القصة مقطوعة شعرية يقول فيها : « ايه ساند ! حين كتبت (هذه القصة) أين رأيت هذا المشهد المروع الذى تسكر فيه نون وهى نصف عارية بخمر الحب مع ريمون على فراش انديانا » •

وحين كتابة قصتها « ليليا » طلبت منه أن يكتب لها مقطوعة شعرية يغنيها البطل ستينو وهو فى حالة سكر ويلعن فيها عشيقته • وقد لى موسىه طلبها عن طيب خاطر وفيها يقول :

لو ارتفعت نظراتى وسط
حالة السكر التى أنا فيها
ولو أخذت شفتى المرتعدة التى زاد
الزبد فى احمرارها تبحث عن قلة
فلا كتب الله لشهواتى الجامحة فوق
الأكتاف العارية لنساء الحب
اللاتى حضرن لتلبية ملذاتى ، لاكتب
الله لهذه الشهوات أن تهدأ •

وما لبث جورج أن أعلنت حبها على الملأ فكتبت تقول للناقد المعروف سانت بيف : « اننى واقعة فى الحب ، وفى هذه المرة بمنتهى الجدية ، مع ألفريد دى موسىه • « وامتألت شقتها فى شارع ملاكيه بالضحك والأغاني والسعادة • وفى ذلك يقول موسىه :

ان جورج فى غرفتها الصغيرة
بين اناءين من الزهور
تدخن سيجارتها
وقد امتألت عيناها بالدموع •

والأرجح أنها كانت تبكى من السعادة أو من كثرة الضحك •

ولم يكن موسىه شخصا عاديا صحيح النفس بل كان مريض النفس ويمر بكثير من الأزمات العصبية تحت تأثير الأفيون يخيل اليه فيها رؤية شخص يشبهه تماما أو لعله هو نفسه • ولو كانت ساند هى التى قالت ذلك وحدها فربما ساور الناس بعض الشك فى صحة ما تقول • ولكن ثمة شهادة أخرى هى شهادة لويز ألان ديبريو التى أصبحت بعد ستة عشر عاما من انتهاء علاقه بساند عشيقة لألفريد دى موسىه •

ومع ذلك فقد سارت الأمور عادية بين ساند وموسيه الى أن قرر العشيقان السفر معا للاستجمام فى فينيسيا (البندقية) بايطاليا • وكتب موسىه أثناء الرحلة البحرية :

كانت جورج على سطح السفينة
تدخن سيجارتها
وموسيه مثل دابة من الدواب
يشعر بألم فى معدته •

وما لبث أن اتابته هناك نوبات الهلوسا • ويقول أخوه بول دى موسىه ان ذلك كان بسبب غيرته الشديدة لمجون جورج ساند • وتولت هى كالمعتاد تمريضه •

ولم تكن تلك هى المرة الأولى فقد اضطرت من قبل الى لبس ملابس الخادمت والذهاب اليه

فى بيت أمه للاشراف على تمريضه وتظاهرت الأم
بعدم معرفتها •

وذات ليلة كان هو نائما وسط مرضه وهلوسته
وجلس جورج مع الطبيب الايطالى بوجللو خارج
الغرفة يتحدثان • وكان هذا الطبيب قد بدأ يروق
لها • واقترح عليها أن تكتب قصة عن ايطاليا
فأمسكت على الفور بورقة وقلم وأخذت تكتب
شيئا ثم قدمت اليه الورقة فاذا بها قد كتبت فيها
اعترافا بحبها له • ولم يكن بوجللو يحبها بل
كان يعرف سلفا انها مغامرة لا أكثر • وراودته
فكرة السفر معها الى باريس لقضاء بعض الوقت
وكان يعرف مقدما أنه سيعود بدونها • وكان
موسيه يرى دلائل هذه العلاقة الجديدة وسط
هلوسة المرض فزداد حالته تفاقما • ولما أفاق
أعطته ساند نفقات العودة بل وكلفته بالاشراف
على ابنتها وشراء بعض لوازمها • بينما بقيت هى
لبعض الوقت مع الطبيب ثم سافرا الى باريس معا •
وقد حمل بوجللو معه بعض لوحاته ، لأنه كان
رساما هاويا ، لعرضها فى باريس • وتظاهرت
ساند ببيعها له بينما الحقيقة أنها اعطته المبلغ من
جيبها الخاص تغطية لنفقاته • وقد تسببت قطيعتها
لموسيه وعلاقتها الجديدة بالطبيب الايطالى فى
احاطة ساند باحتقار معارفها وأصدقائها سواء
فى فينيسيا أم فى باريس ونوهان •

وكانت القطيعة بهذه الطريقة قاسية على ألفريد
دى موسيه كل القسوة لا لأنه كان شديد التعلق
بساند بل لأنه اعتبرها اهانة لكرامته • ولقد ظل
بعض الوقت يلاحقها بخطاباته الملتهبة ويعرض
عليها حبه من جديد ، ولكنها كانت قد صممت
على استمرار الفراق وان كانت قد استمرت ،

كطريققتها مع عشاقها ، على الاهتمام به وبصحته •
وفى ذلك تقول له فى احدى خطاباتها : « من
سيرعاك ومن سأرعى أنا » • وغرق ألفريد لأذنيه
فى علاقاته مع فتيات الليل والأفيون •

وقد أثمر هذا الحب الكثير من الآثار الأدبية
الرائعة ، أهمها خطاباتها له التى نشرها أخوه
بول دى موسيه تحت عنوان : « هو وهى » ، على
حين نشرت هى خطاباته اليها فيما بعد تحت عنوان :
« هى وهو » • وفى تلك الخطابات يتبين بوضوح
نوع الحب الذى كانت تكنه له وهو أقرب الى
الأمومة أو حنان الممرضة نحو مريضها •

ولقد مر ألفريد دى موسيه فيما بعد بأماكن
فى الغابة كان يلقاها فيها فكتب يقول فى مقطوعة
أسمها « ذكرى » :

« نعم بلا شك كل شئ الى فناء وهذا العالم
حلم كبير •

والقليل من السعادة هو الذى نصادفه فى
الطريق •

فنحن لا نحفظ حتى نبات البوص هذا فى
يدنا •

بل ان الرياح تخطفه منا •

واذا كان الحب قد ضاع فهذا لا يمنع من أننا
قد أحبنا •

لا أريد أن أعرف شيئا ، لا أريد أن اعرف •

ما اذا كانت الحقول قد أزهرت ولا ماذا
سيحدث لهذا التمثال الذى يمثل البشرية ولا
ما اذا كانت هذه السماوات الشاسعة

سوف ترسل الضوء غدا على ما تدفئه •

ولكنى فقط أقول لنفسي : « فى هذه الساعة ،
فى هذا المكان •

الصداقة الخاصة قد استمرت تربطه بابتها سولانج حتى موته •

ولقد وصفها بلزاك في احدى رواياته تحت اسم كاميل موبان وقال : « ان لها من القلب أكثر مما لها من موهبة • وهى ذات نبوغ بل ان حياتها لايمكن الحكم عليها كالحياة العادية للناس » •

ويقال ان ساند كانت تخشى الشيخوخة لأنها ستقف حائلا بينها وبين الاستمرار فى حياتها المتحررة • كما يقال انها عادت ذات يوم من رحلة غرامية مع أحد أصدقائها فبلغها نبأ ان ابنتها سولاج قد وضعت طفلة فانفجرت ساند فى بكاء مر طويل • وأول بعض النقاد هذا البكاء على أنه حزن على حياتها الانطلاقية لأنها وقد أصبحت جده يجب عليها من الآن فصاعدا أن تتخذ طابع الوقار • وهذا ما حدث فعلا فقد عاشت ساند بصفة شبه مستمرة فى ضيعتها نوهان محاطة بالكثير من الأصدقاء المخلصين • وكان الكثير من رجال الأدب مثل فلوير والكسندر ديماس الابن يزورونها فيها كما زارت هى فلوير فى ضيعة فى كرواسيه • وكانت تهتم بمسرح العرائس الذى أقامه ابنها مورييس فى نفس قصرها بل وكانت تصنع بنفسها ملابس العرائس •

وقد اشتركت ساند فى هذه الفترة من حياتها فى الحياة العامة والسياسية ، بل غرقت فى هذه الحياة حتى أذنيها وكتبت بخطها المنشورات الثورية وحرضت على المظاهرات وخشيت السجن أكثر من مرة الا أن أية حكومة من الحكومات المتتالية لم تفكر فى تعكير صفو حياتها • وأنشأت ساند مجلة « المجلة المستقلة » بهدف خلق أدب جديد نابع من الشعب •

ذات يوم كنت محبوبا وكنت أحب وكانت جميلة •

وانى لأخفى هذا الكنز فى دخيلة نفسى الحالدة •

وأحمله معى الى الله ! •
فردريك شوبان :

ولقد استمرت ساند فى الطريق الذى خطته لنفسها فعرفت بعض الشبان مثل ميشيل دى بورج وديديه وغيرهما ولكن ربما كانت أهم علاقاتها هى حبها للموسيقى البولندى المعروف فريدريك شوبان •

ويرتبط شوبان بمن سبقوه مع ساند بنفس خطوط التشابه فقد كان يصغرها بثمانى سنوات وكان شاحبا نحىلا مصدورا ومعدما • والتقطته ساند وتولت الانفاق عليه وتمريضه بل وسافرت معه ومع ولديها الى أسبانيا عله يجد الدفء فتحسن حالته الصحية • ولكن الشتاء فاجأهم هناك فازدادت حالة المريض سوءا • ثم عادت به قرابة ابتداء الصيف الى ضيعتها فى نوهان ، وكان زوجها قد تركها لها بعد قضية طويلة حصلت فيها على ضم أولادها اليها •

وكانت ساند تعتبره ثالث أولادها ، بل كان كل من يكتب اليها يسأل عن « الثلاثة » كما تسأل الأم عن أطفالها • ولقد أثمرت تلك العلاقة بالنسبة لشوبان بعض المقطوعات الموسيقية الرائعة • ولم تكن قطيعتها له قاسية كما حدث مع ألفريد دى موسيه بل لعله هو الذى قرر هذه القطيعة • فقد سافر فى رحلة الى بلاده ولما عاد ظل فى باريس ولم يعد الى نوهان وان كانت

اشتراكية جورج ساند :

بعد ثورة سنة ١٨٣٠ بدأ العمال يشعرون بوجودهم وبأنهم غير ملزمين بتحمل الفقر الى مالا نهاية . وقد وجد بلزاك علاجاً لهذه الثورة في العودة الى المسيحية . الا أن جورج ساند ، تحت تأثير صديقها لورو ، اعتنقت فكرة أن المجتمع يستطيع توزيع ثرواته على أساس العمل وأن الملكية ليست هدفاً في ذاته وكذلك ليست حقاً وأن المجتمع ككل له الحق في تغيير وتوزيع الثروة القومية . وفي سنة ١٨٤٣ كتب الناقد المعروف سانت بيغ يقول : « ان القوى الأربعة الاشتراكية الحيرة الكبرى هي : بيرانيه ولامنيه وساند وأوجين سو . »

وغنى عن القول ان كلمتي الاشتراكية والشيوعية في هذا الوقت لم يكن لهما المدلول الذي أصبح لهما في أيامنا هذه . ولقد عبرت ساند عن هذه الاشتراكية بعطفها الشديد على الفقراء من الشعراء . كما اختارت كموضوع يدرس في رواياتها المختلفة ما أسمته « بفقراء المدن والريف » ، وقارنت بين فقر العمال والفلاحين والغنى الذي يرفل فيه الكبار والأغنياء . وفي روايتها « الرفاق في جولة في ربوع فرنسا » تقول ساند عن أحد شخوص الرواية وهو نجار : « ان النجار الجميل بير هو جنين من نفس « النسيج المقدس » الذي صنع منه النجار يسوع » .

ولا ينبغي أن ننساق في اعتقاد ان ساند قد خصّصت كل هذه الفترة من حياتها « للاشتراكية » أو « للشيوعية » كما كانت تقول بل كانت لها في ذات الوقت اهتمامات أخرى : « أظن أنني أشرب

الدم في جماجم الأرستقراطيين ! كلا اني أدرس فيرجيل وأتعلم اللاتينية » وفي هذه الفترة من حياتها كذلك كتبت روايتها الريفية التي تتغنى بظهر الفلاحين وشجاعتهم مثل « البحيرة المسحورة » « وفرانسوا لقيط الحقول » ولما نشرت روايتها « الرفاق في جولة حول فرنسا » كتب بلزاك عنها الى صديقه الأجنبية يقول : « ان أحدا لم يعد يريد في أي مكان أن يقرأ جورج ساند فقد قتلها رواية « الرفاق في جولة حول فرنسا » رغم الامتياز الذي يحصل عليه الكتاب المشهورون بالرداءة خلال العشرين جزءاً التي يكتبونها » ولكن في العام الذي يليه يكتب لنفس الصديقة عن نفس الرواية قائلاً : « اقرئي هذا انه رائع . ان المنظر قد خطته يد فان أصيل »

ثم شغلت ساند بعض الوقت بمشاكلها الخاصة وقطع علاقتها مع شوبان وخلافها مع ابنتها وخلاف ابنتها مع زوجها وزواج ربيبتها أوجستين .

وابان ثورة سنة ١٨٤٨ التي أتت بالجمهورية أصبحت جورج بوق هذه الثورة . وتقول ذات مرة لربيتها أوجستين تصف تأثير الثورة في الشعب :

« كم كان جميلاً وبسيطاً ومؤثراً أن يضغط اربعمائة ألف شخص من المسادين الى عمود يولية دون أن يكون ثمة شرطى واحد . ومع ذلك كان النظام مكفولاً وحسن التصرف والأدب المتبادل مؤكدين حتى أن أحداً لم يدس على قدم أحد ولم تسقط على الأرض قبة أحد . بالاعجاب ! ان شعب باريس هو أول شعوب العالم ! » وفي كتابها : « خطابات الى الطبقة المتوسطة »

تقول : « ان الشعب على استعداد لمنح ثقته كاملة للبورجوازية . ولن تفرط البورجوازية في هذه الثقة ، فهي لن تسمح لنفسها بأن تفضل بالاستماع الى النصائح المؤذية ولا التحذيرات التي لاجدوى منها ولا الشائعات الخاطئة أو التشنيعات الموجهة ضد الشعب . وسوف يكون الشعب عادلا . هادئا رزينا وطيبا مادامت الطبقة المتوسطة تضرب له المثل على ذلك » ...

أما بلزاك فلم يكن له نفس هذا الحماس المتفائل بل كان يقول : ان الجمهورية لن تدوم أكثر من عامين أو ثلاثة » وانقسمت البلاد كلها آنذاك الى جمهوريين وملكيين . وما لبثت أن فشل النظام الذي أيده ساند واضطرت الى العودة الى ضيعتها في نوهان حيث أصبحت تقضى معظم وقتها اما مع الأصدقاء أو في الكتابة . وكانت كما يبدو من كتاباتها عطوفة على الفلاحين كثيرة البذل لجميع من حولها .

وفي هذه الفترة نشرت ساند روايتها الريفية المعروفة « فاديت الصغيرة » التي أعادت اليها جمهورها . ولما تولى لويس نابليون بونابرت الرئاسة ، وكانت ساند قد تعرفت به فيما مضى ، أبدت تأييدا له رغم تحذير أصدقائها . وقد استقبلها في قصر الاليزيه وقبل شفاعتها للإفراج عن كثير من أصدقائها كما قبل دعوتها له بنسيان عداوة من أبدوا العداوة نحوه وفتح صفحة جديدة . وهكذا كان لها الخطوة لدى النظام الجديد .

شيخوخة جورج ساند :

كانت شيخوخة جورج ساند هادئة . وقد غيرت الكثير من أفكارها وتناولت الكثير من روايات

الصبي بالتعديل لاختفاء جوانب الحرية الشديدة التي كانت تدين بها . وأبدت ايمانها من جديد بالزواج وشجعت ابنها عليه بل وأصرت على أن يكون زواجه دينيا . الا أن الدين الجديد الذي اختارته لنفسها ولابنها لم يكن الكاثوليكية فقد ساءت علاقتها كثيرا بكنيستها ، بل كان البروتستانتية . وكانت علاقتها ودية مع زوجة ابنها كما أحبت أحفادها جميعا حتى العبادة وهي في ذلك تذكرنا بشيخوخة الشاعر فيكتور هوجو . وقد تعلقت تعلقا شديدا بابنة سولانج « نيني » ولما ماتت حزنت عليها حزنا شديدا يتسم بالرزانة والهدوء . وحين مرض الابن الأول لنجلها موريس كان الابن واسرته في ضيافة والده كازيمير دي دفيان وكانت ساند في باريس . وما أن وصلها النبأ حتى شدت الرحال دون تردد الى بيت زوجها ولم تكن قد رأته منذ سنوات طويلة . ولما التقت به قالت بصوت منخفض : « كازيمير » ولكنه رد عليها بسرعة : « ان غرفتك في انتظارك يا سيدتى ولم يدخلها أحد منذ تركتها » . ولما سئل عن رأيه فيها بعد هذه المدة الطويلة قال : « وجدتها في الحريف فلم أستطع أن أدعها باسمها الذي يعنى الفجر » وكانت فعلا آثار الشيخوخة واضحة عليها . وحين انتهت الزيارة التفتت ساند الى عشيقه زوجها قائلة : « انى أترك زوجي في رعايتك » .

في هذه الفترة لم تعد تحب الحياة الا في ضيعتها في نوهان وفي ذلك تقول : « ان كل ما يبعدني عنها ليس الا تسكنا » . وكان أصدقاءها من رجال الأدب ومن بينهم جوليت آدم يترددون عليها فيها . وقد أبدت الكثير من

الحماس لرواية فلوير : « الثقافة العاطفية » .

وحين نشبت الحرب بين فرنسا وبروسيا وتلتها هزيمة فرنسا ثم حكومة الكومين كانت ساند ضد الذين حاصروا باريس ولامت أصدقاءها في باريس على أنهم سمحوا بقلب الحكومة . كما تأملت ألما شديدا لفترة التدهور التي مرت بها البلاد اثر الهزيمة . وتقول في احد خطاباتها لصديقتها فلوير : « لا ينبغي أن تستسلم للمرض أيها الراوى العجوز ، بل يجب أن تسعل وتمخط أنفك وتشفى وتقول ان فرنسا مجنونة والانسانية حمقاء وأنا حيوانات غير مكتملى الحلقة . ومع ذلك يجب أن نحب بعضنا بعضا ونحب أنفسنا وجنسنا وأصدقاءنا بصفة خاصة . . . هل يمكن أن يعيش المرء فى هدوء حين يكون الجنس البشرى يمثل هذا الغموض ؟ اننى لأستسلم وأقول ربما كنت أنا نفسى فى مثل غموض الجنس البشرى وأن الوقت قد حان لأصحح أخطائى » . ثم أدرك المرض جورج ساند وماتت محاطة بأسرتها وكانت آخر كلماتها : « الوداع يا مورييس ، الوداع يا لينا ، الوداع يا لولا . . . »

أهم مؤلفات جورج ساند :

تركت جورج ساند تراثا أدبيا ضخما نكتفى هنا بذكر أهم الأعمال فيه وهى :

الرفاق فى رحلة حول فرنسا ، كونستانس فيرييه ، كونسويلو المهرب ، المراسلات وهى من ستة أجزاء وقد نشرها ابنها مورييس لدى كلمان ليفى ، مراسلات جورج ساند مع ألفريد دى موسيه ، قصة حياتى ، انطباعات وذكريات ، انطباعات أدبية ، مذكرات مسافر أثناء الحرب ، خطابات الى الشعب ، خطابات الى مورييس ،

خطابات لألفريد دى موسيه وسانت بيف ، مدموازيل ميركيم ، أساطين العزف على الناي ، البحيرة المسحورة ، زواج فيكتورين ، مربرا ، شتاء فى جنوب أوروبا ، فالتين .

لم تكن اذن حياة جورج ساند ، كما قلنا ، مثلاً يحتذى . وكان الكثير من الكتاب يوجهون لها نقدا شديدا وكان البعض الآخر يعاملها بفتور وان كانت هى تعتقد أنهم من الأصدقاء ومن أمثال هؤلاء سانت بيف وبلزاك . أما بودلير فقد كره منها فى الفترة الأخيرة من حياتها أنها كانت تحاول أن تنصح بما لم تفعله فى شبابها . وفى ذلك يقول : « ان المرأة ساند رديئة لأنها تنصح بما لم تفعله » . ومع ذلك فقد ماتت كما رأينا محاطة بالأصدقاء الذين يحبونها من أعماق قلوبهم . ذلك أنه اذا تركنا حياتها الخاصة الصاخبة الماجنة جانبا ودرسنا ما أسدت من خير وما بذلت للجميع وكيف عاشت لمحبة الناس فى حالة بذل مستمر واذا رأينا كيف أن كتبها تنبض بالمشاعر الطيبة ، لاسيما رواياتها الريفية ، وأن هذه الروايات مازالت تؤدى تأثيرها الطيب فى نفوس الفتيان والفتيات المراهقين ، لما بخلنا عليها بالمكانة التى تحتلها فى الأدب عامة ، وفى الأدب النسائى بصفة خاصة ، لو أردنا أن نقحمها على هذا الأدب لأنها لم تكتب أبدا على أنها امرأة بل تزيت بزى الرجال واتخذت الصفة العامة « للأديب » لا للأديبة .

وسوف نقدم فيما يلى فقرات من روايتها : « أساطين العزف على الناي »

هكذا تبدأ هذه الرواية :

« اننى لست على الاطلاق من مواليد الأمس ،

هكذا قال عام ١٨٢٨ الأب اتين • فقد أتيت الى هذا العالم ، حسب ما تعي ذاكرتي ، عام ٥٤ • أو عام ٥٥ من القرن الماضي • ولكن لما كنت لا أذكر كثيرا سنوات حياتي الأولى فلن أحدثكم عن نفسي الا ابتداء من تعميدى الأول الذى تم عام ٧٠ فى أبروشية سانت شارتييه التى كانت حينئذ تحت اشراف القس مونبيرو وهو اليوم أصم ومحطم تماما •

ولا يعنى ذلك أن أبروشيتنا فى نوهان كانت ملغاة فى ذلك الوقت ، ولكن لما كان القس قد مات فقد تجمعت الكنيستان مؤقتا جدا تحت اشراف قس أبروشية سانت شارتييه • وكنا نذهب يوميا لحضور درسه الدينى أنا وابن عمى وصبى يدعى جوزيف يسكن فى نفس منزلنا هو وخالى وستة من الأطفال الآخرين •

وانى أقول خالى اختصارا فقد كان خالى الكثير أى شقيق جدتى وكان اسمه بروليه ولذا فقد سميت حفيدته بروليت وهى الوحيدة التى انحدرت من سلالته ولا يفكر أحد اطلاقا فى دعوتها باسمها التعميدى وهو كاترين •

ولكى أسرد لكم على الفور الأحداث كما وقعت فقد شعرت منذ ذلك الحين أننى أحب بروليت أكثر من حبنى لها كابنة خال • وكنت أغار من أن جوزيف يقضى معها طول اليوم فى مسكن يبعد مرمى البندقية عن آخر بيوت القرية ويبعد ربع فرسخ عن المدينة ، فكان يراها طيلة اليوم فلا أراها الا قبل أن تذهب كل يوم للدروس الريفية أى أننى لم أكن أراها كل يوم •

» وسأقول لكم كيف أن جد بروليت وأم جوزيف كانا يعيشان تحت سقف واحد • كان

البيت ملكا للشيخ ، وكان قد أجزأ جزءا صغيرا منه الى هذه المرأة الأرمل التى لم يكن لها أطفال غيره • كان اسمها مارى بيكو وكانت ماتزال تصلح للزواج لأنها لم تكن قد تعدت الثلاثين بكثير • وكان يبدو من وجهها وجسمها أنها كانت على قسط كبير من الجمال • وكانوا يسمونها هنا وهناك « بمارتيون » الجميلة ولم تكن هذه التسمية لاتروق لها • وكانت تتمنى أن تزوج ثانية ولكن لما كانت لاتملك الا عينيها الجميلتين وحديثها الشيق فقد اعتبرت أنها سعيدة لأنها لاتدفع كثيرا فى مسكنها ولأن صاحب البيت الذى هو جارها فى نفس الوقت رجل مسن عادل شهم لا يضايقها أبدا بل كثيرا ما يمد لها يد المساعدة •

وهكذا عاش الأب بروليه والأرمل بيكو التى تسمى «ماريتون» عاشا هكذا فى تقدير كريم متبادل منذ اثنى عشر عاما أى منذ اليوم الذى ماتت فيه أم بروليت وهى تلدها • فقلت ماريتون رعاية هذه الطفلة كما لو كانت ابنتها وأولتها من الحب مثل ما تعطى ابنها •

» وهكذا الفى جوزيف ، الذى كان يجاوز بروليت فى العمر بثلاث سنوات ونصف ، الفى نفسه يتأرجح فى نفس أرجوحتهما • وكانت الطفلة الصغيرة هى أول شئ عهدوا به الى ذراعيه الصغيرتين • وفيما بعد حين لاحظ الأب بروليه أن جارته تتعب من رعاية الطفلين اللذين كادا أن يشبا عن الطرق أخذ الصبى لديه فأصبحت الطفلة تنام لدى الأرملة والصبى ينام لدى الشيخ •

» وليس معنى ذلك أنه كان غنيا أو أن الحياة كانت رغبة • ولكن كانت هذه الأرملة اللطيفة

ولما رأيته ، لاسيما أنني لم أكن معتادا على الذهاب بعيدا الى هذا القدر ، احتفى بي احتفالا لم يترك لي وسيلة لمغادرة المكان .

- لقد حضر رفيقك جوزيف الى هنا منذ ساعة على الأكثر ليسألني ، اذا كانت بائعة الفحم في الغابة ، ولا يد ان سيده قد طلب منه احضار بعض الفحم . ولم يكن يبدو عليه أى اضطراب وليس به أثر لاعياء بل تحمله ساقاه جيدا . وقد توغل حتى شجرة الزان الضخمة . ليس لك اذن أن تقلق عليه وما دمت هنا فلا بد من شرب زجاجة معي وانتظار امرأتي التي ذهبت لتعود ببقراتها لأنها ستغضب لو رحلت دون أن تراها .

ولما لم يكن بعد لدى أى سبب للقلق فقد مكثت لدى أبي بالتعميد حتى قرب الغروب . وكنا في منتصف شهر فبراير . فلما رأيت الليل يقترب ودعت الجماعة وسلكت الطريق العلوى حتى أصل الى « فرنوى » وأعود الى البيت رأسا عن « طريق الانجليز » دون المرور بسانت شارتييه التي لم يعد لي شأن بها .

وشرح لي أبي بالتعميد الطريق بعض الشيء لأنني لم أجتز الغابة الا مرة أو مرتين في حياتي . وتعرفون أننا في هذه البلاد لا نبتعد كثيرا لاسيما من كان منا يعملون في الأرض فهم يعيشون حول البيوت كما تعيش صغار الفراخ حول الدجاجة .

ورغم تحذيراتهم فقد انحرفت أكثر من اللازم تجاه اليسار وبدلا من أن أصادف الممر الكبير لأشجار الزان وجدت نفسي وسط الأحرش على بعد نصف فرسخ من المكان الذي كان ينبغي أن أبلغه . وكان الليل قد أرخى سدوله تماما فلم

ذات القلب الطيب تعيش معه عيشة شريفة طيبة وكانت بروليت تعتبرها أمها حتى أن خالى اعتاد أن يعتبرها ابنته أو على الأقل زوجة ابنه .

ولم يكن ثمة من هو أحنى ولا ألطف من الفتاة الصغيرة هذه التي تولت « ماريون » تربيتهما ولما كانت هذه المرأة تحب النظافة وكانت تبدو دائما في حالة أحسن مما يسمح لها بها مستواها فقد عودت برولت منذ حداتها أن تحذو حذوها . وفي السن التي يشد فيه الأطفال بعضهم البعض ويتدحرجون ما شاء لهم ذلك كانت تلك الطفلة تبدو رزينة حلوة ومتأنثة في جميع عاداتها حتى أن الجميع كانوا يرغبون في تقيلها .

ولكنها منذ ذلك الحين كانت تبدو ضئيلة بملاطفتها ولا ترفع صوتها الا في حالات الضرورة القصوى .

وفي الصفحات التالية من نفس الرواية يحكي الشيخ كيف أن رفيقه جوزيف ترك المنزل منذ ثلاث ليال دون أن يعرف أحد مكانه ، وكيف ذهب يبحث عنه ، وكان آنذاك في شرح الصبا ، فضل طريقه في الغابة :

« واتجهت نحو الطريق الذي رأيت جوزيف يسير فيه وكتبت أسأل عنه طوال السير دون أن أحصل على أى خبر جديد الا ان البعض قد رأوه يسير ولكن أحدا لم يره يعود . وقادتني قدامى الى عين الغابة وذهبت لسؤال حارسها الذي كان يسكن منزلا غاية في القدم . انه لمكان كثيب رغم أن المراء يرى منه الى مدى بعيد اذ لا ينبت فيه على جوانب أشجار الزان الا الحشائش والأشواك . وكان حارس الغابة في هذا الوقت هو جارفوا ، أبي لدى التعميد ، وهو رجل ساذج أحمر الوجه .

أعد أرى أى شىء وذلك لأنه فى ذلك الحين كانت غابة سانت شارتييه مازالت جميلة لا بالنسبة لاتساعها الذى لم يكن أبدا ذا بال فحسب بل بالنسبة لعمر أشجارها التى لم تكن تسمح قط بتسرب الضوء من السماء الى الأرض • كانت تضطرك الى دفع ثمن ما تستمد منها من اخضرار • فكنت لا تجد بها الا نباتات شوكية وأحراشا وطرقا محفرة وأعشابا يابسة لاتستطيع أن ترفع قدمك كثيرا عنها ، بيد أنك تغرق فيها حتى ركبتك حين تبعد عن الخط المرسوم • وهكذا ضللت الطريق فى الغابة ووجدت نفسى ممزقا وملطخا فأخذت ألعن الساعة الرديئة وهذا المكان المشؤم •

وتتحدث جورج ساند عن بطل الرواية جوزيف نافخ الثانى فتقول : (١)

« ان الحياة عندنا ليست لينة ولا مريحة كما هى فى بلادكم • ورغم أن أبى بحكم تجاربه كان يريد الامساك به الا أن جوزيف وسط العجلة التى كانت تدفعه للنجاح قد استهلك أنفاسه بعض الشىء فى أبواقنا • وهى كما شاهدتم من حجم آخر يختلف عن أحجامها لديكم ، فهى تتعب المعدة مادام النافخ لم يصل الى الطريقة الصحيحة للنفخ فيها • ولذا فقد وقع فريسة الحمى وبدأ يبصق الدم • وكان أبى يعرف الداء ويعرف طريقة السيطرة عليه ولذا فقد سحب منه البوق وأوصاه بالراحة • ولكن اذا كان جسمه قد استفاد من ذلك من جهة فقد لحق به الضرر من جهة أخرى • فقد كف عن السعال وبصق الدم ولكنه وقع فى

(١) ص ١٨٩ من طبعة كالمان ليفى والمتحدث هنا هو صديق حميم لجوزيف وابن الرجل الذى تبناه بعد أن غادر بيت أمه بسبب يأسه من حب بروليت.

حالة من السأم والضعف جعلتنا نخشى على حياته • حتى أنه منذ ثمانية أيام ، ولدى عودتى من بعض جولاتى وجدت جوزيف شاحبا لدرجة جعلتى لا أعرفه ، ولم تكن ساقاه تحمله لدرجة أنه لم يعد قادرا على الوقوف •

ولما استفسرت منه عن أمره قال لى بحزن عميق وهو يزرف الدموع : « اننى أرى جيدا يا صديقى هوريل ، أننى سأموت وسط هذه الغابات بعيدا عن بلدى وأمى وأصدقائى ودون أن أحصل على حب تلك التى كانت أود أن أظهر لها مقدرتى • ان السأم ينهش رأسى ونفاد الصبر يجعل قلبى يابسا كالخطب • وكنت أتمنى لو أن أباك تركنى أقضى آخر أيامى وأنا أنفخ فى آلة النفخ ، اذن لمت وأنا أرسل من بعيد الى تلك التى أحب كل عبارات الحب التى لم يستطع فى أبدا أن يقولها لها ، وأنا أحلم أننى الى جانبها • لاشك أن الأب باستيان كان حسن النية لأننى كنت أشعر أننى أقتل نفسى بسبب الحمية الزائدة • ولكن ماذا أكسب لو أننى مت بسرعة أقل ؟ لابد فى كلتا الحالتين أن أتخلى عن الحياة مادمت من ناحية لا أملك قوت يومى وأقع عالة عليكم ، ومن ناحية أخرى أجد نفسى نهجلا ضعيف الرئتين لدرجة لاتمكننى من النفخ فى الآلة • وهكذا قدر لى ، لن أكون أبدا ذا بال • وهأنذا أقضى دون أن أذكر يوما واحدا ذقت فيه لذة الحب والسعادة • »

ليست تلك هى الصفحات الرائعة الوحيدة فى هذه الرواية • اليكم صفحات أخرى تتحدث فيها جورج ساند عن التأثير السحري للموسيقى والحديث هنا عن البطل جوزيف وتأثير الموسيقى فى نفسه ؟

« كان ينظر الى بروليت التي كانت تستند الى مقعد ، وكان وجهها مستديرا تجاه الحائط .
ولما لم تنطق بنت شفة أخذت جوزيف سورة من الغضب سواء ضدها أو ضد نفسه ، ورأيته كما لو كان يهم بتحطيم نايه بين أصابعه . ولكن في هذه اللحظة نظرت الفتاة الجميلة ناحيته ودهشت اذ لاحظت أثر قطرات كبيرة من الدمع فوق خديها .

وقال لها : « فسرى لى يافتانى اللطيفة ما اذا كنت تبكين من العطف على أم من السرور .
وأجابت : « لا أدري ما اذا كان السرور من شئ كهذا يبعث على البكاء . فلا تسألنى اذا كنت مرتاحة أم متعبة . كل ما أعرفه هو أننى لم أستطع حبس دموعى ، هذا كل ما هنالك .

فقال جوزيف وهو يحدق فيها بعينه : « ولكن فيم فكرت أثناء عزفى على الناي ؟ وأجابت بروليت قائلة :

« فى أشياء كثيرة لا أستطيع تبيانها لك » .
فأردف جوزيف قائلا فى لهجة أمرة تنبى عن نفاذ الصبر : « ولكن قولى واحدا منها » فقالت بروليت : « لم أفكر فى شئ ولكن راودتنى آلاف من ذكريات الماضى . لم أشعر مطلقا أنك تعزف على الناي رغم أننى كنت أسمعك فى وضوح ، ولكن كنت تبدو لى كما لو كنا فى الوقت الذى كنا نعيش فيه معا ، وكنت أشعر كما لو كانت رياح قوية تحملنى وإياك تارة فوق حقول القمح الناضجة وتارة فوق الأعشاب المهترزة وتارة ثالثة فوق المياه الجارية . وكنت أرى المراعى والغابات والينابيع وحقولا فسيحة من الزهور وسماوات شاسعة تحلق فيها الطيور التى تمر وسط السحب .

ورأيت كذلك فى غفوتى أمك وجدى يجلسان أمام النار ويتحدثان فى أشياء لا أفهمها حينما كنت أراك فى أحد الأركان جاثيا على ركبتيك تصلى ، وكنت أشعر بنفسى كما لو كنت نائمة فوق سريرى الصغير . ورأيت كذلك الأرض مغطاة بالبرد وأشجار السرو حافلة بالعصافير ثم ليال مليئة بالنجوم السيارة التى ننظر اليها نحن الاثنان ونحن جالسان فوق اكمة بينما نسمع صوت ماشيتنا وهى تقضم الكلأ . وأخيرا رأيت أحلاما كثيرة اختلطت الآن فى رأسى . واذا كان كل هذا قد أعطانى رغبة فى البكاء فليس ذلك مطلقا بسبب الحزن ولكن بسبب هزة ارتعدت لها أفكارى ولا أستطيع شرحها على الاطلاق » .

وقال جوزيه : « هذا جميل ! ان ما شعرت به وما فكرت فيه وأنا أعزف الناي قد شعرت به أنت أيضا ! شكرا لك يا بروليت ! لقد علمت منك أننى لست مجنونا وأن ثمة حقيقة كامنة فيما نسمعه كما أن هناك حقيقة فيما نراه » . وأضاف وهو يروح ويحيى فى الحجرة بخطوات واسعة رافعا نايه فوق رأسه :

« نعم نعم ! انها تتكلم ! هذا الجزء البسيط من نبات الغاب ، انه يقول ما نفكر فيه ويرينا الأشياء كما لو كنا نراها بأعيننا ، ويحكى قصصا كما يحكى الناس بالكلمات ويحب كما لو كان له قلب ، ويحيا ويثبت وجوده ! والآن يا جوزيف ، لآيها الغر المجنون المأخوذ ! تستطيع الآن أن تعود الى بلاهتك فانك قوى وعالم وسعيد كائى فرد آخر ! »

ولما نطق بهذا الكلام جلس وهو لا يولى انتباهه لأى شئ مما يحيط به .

وأخذنا تنفرس فيه أنا وبروليت لأنه لم يعد جوزيه الذى نعرفه • أما بالنسبة لى فقد خيل الى أن ثمة شيئا فى كل هذا مقتبسا من القصص التى تحكى فى قريتنا عن غازفى النأى والمزمار الذين يظن الناس أن لهم قدرة على تنويم أشد الدواب شراسة وعلى أن يقودوا قطعانا من الذئاب على الطريق كما يقود الناس قطعان النعاج الى الحقول • لم يكن جوزيه على الإطلاق فى حالة طبيعية وهو أمامى فى تلك اللحظة • لقد بدا وهو النجيل الشاحب كما لو كان قد كبر ونضج كما رأيته من قبل فى الغابة (١) • كان وجهه ينطق بتعبير غريب : كانت عيناه فى رأسه كشعاعين من أشعة النجوم • وإذا قال أحد عنه انه أجمل صبى فى العالم فى هذه اللحظة لما كان مخطئا •

مما لا شك فيه أن تلك صفحات رائعات لا يخطئها الايراع فنان أصيل ، ولعل النص الأصيل أشد جمالا وأكثر وقعا من النص المترجم مهما بذل فيه من جهة لتقريب تأثيره من تأثير النص الأصيل •

وفى الصفحات التالية مساجلة بين البطلة بروليت التى تحب جوزيف ويحبها وبين فتاة أخرى تدعى تيرانس كانت تحب جوزيف دون أمل فراحت تعتذر لبروليت عن حبها له وتنصحها بالعطف عليه والعناية به (٢)

« هل فكرت جيدا يا تيرانس المسكينة فيما تقولين لى ؟ اذا كنت تريدين معرفة أعماق أفكارى فانى أعتقد أنك تحبين جوزيف وأنى أوحى اليك على الرغم منى بغيرة شديدة تدفعك لتلمسى

(١) ذات ليلة رآه فى الغابة أثناء تلحينه لقطوعة موسيقية .

(٢) ص ١٦٣ من نفس الطبعة .

أخطائي • ألا فلتمنعنى النظر يا طفلى • اننى لا أريد أن أجعل من هذا الفتى عاشقا ، لم أفكر فى ذلك قط وآسف لأنه أصبح كذلك • بل انى لمستعدة كل الاستعداد لمساعدتك على شفائه من هذا الحب • ولو كنت أعلم ما أطلعتنى عليه الآن ما كنت أجىء الى هذا المكان أبدا مهما قال لى أخوك بأن ذلك لأمر ضرورى •

وقالت تيرانس :

« انك تظنينى قليلة الاعتزاز بكرامتى لو حكمت أنى أحب جوزيف كما تفهمين ذلك وأننى أهبط الى درجة الغيرة من سحرك • ان الطريقة التى أحبه بها لاتجيز لى اخفاء هذا الحب ولا التحجل منه أمام أى انسان • ولو كان الأمر كذلك لكان لى من الاعتزاز ما يكفى لكى لا أجعل أحدا يعتقد أننى أحاول اختطافه منك • ولكن صداقتى له صريحة وشريفة ، بل وتجعلنى أدافع عنه بشجاعة ضد الفخاخ التى تنصينها له • وعلى هذا فلتحبيه بصراحة كما أفعل ، وبدلا من أن أحمل لك أية موجدة سوف أحبك وأقدرك • سوف اعترف بحقوقك وهى أقدم من حقوقى وأساعدك على اضطحابه الى بلده بشرط أن يصبح هناك صديقك الوحيد وزوجك • والا فتوقى أن تجدى فى عدوا تهكم صراحة • ولن يقول أحد أننى احببت هذا الفتى ورعيت هذا المريض لتأتى غانية من القرية وتقتله تحت عينى » •

وذاذ يوم ودون سابق انذار ظهرت ، بروليت وسط اهلها وأصدقائها وأهل قريتها وهى تحمل طفلا صغيرا تحنو عليه حنان الأم وترفض أن تبوح بنسبه • وحار الناس فى ذلك أيما حيرة وراحوا يفسرون الأمر ويقلبونه ماشاء

لهم ذلك • بل أن بعضهم ، ومنهم أقرب الناس إليها ، أخذ يظن بها الظنون ويعتقد أنه ابنها •
وأول هؤلاء صديق الصبا جوزيف عازف الناي الذى هام على وجهه فى الغابة وانغمس فى كتابة غريبة لم يدر أحد سببها لولا أن أفضى هو الى صديق شبابه الذى عرف منه أنه ينوى خطب يد بروليت ، أفضى اليه بسر كتابته وقال له : « لقد أدركت أن بروليت لم تكن تحبني وأنه كان هناك آخر بدليل هذا الطفل الذى لاتخجل من رعايته والتعلق به على مرأى ومسمع من الجميع » •
وأصرت بروليت على رفض كل من يتقدمون لطلب يدها ولديهم ذرة من الشك فى طهرها ، ومع ذلك لم تقل الى من يمت هذا الطفل • حتى كشف والد الطفل نفسه عن هذا السر • انه رجل فاضل تزوج سرا من أمها بالتبني وأم جوزيف حقيقة ، الأرملة الطيبة التى تولت رعايتها منذ ولادتها • ولقد اضطرته بعض الظروف الى عدم اعلان هذا الزواج • ولكن بروليت بدافع من الاخلاص وعرفان الجميل تولت رعاية الطفل معرضة سمعتها لما تعرضت له مما لاكنه الألسنة • فلما أعلن هذا السر ارتاحت جميع النفوس الصديقة التى كانت تساورها الشكوك وكانت تتمنى أن يأتى ما يكذبها •

وتقدم يطلب يدها ذات الشاب الذى باح له جوزيف بشكوكه فى مسلك بروليت واسممه « تينى » فقبلته ، كما تزوجت فى نفس الوقت اخت هذا الشاب وهى برودانس وعاش العرائس الأربع فى منزل واحد فى صفاء ووثام بينما انسحب والد تينى وبرودانس ، وهو الآخر عازف مزمار ، انسحب ليعايش جوزيف فى الغابة ويواسيه • ولكن جوزيف ما يلبث أن يقضى

نحبه فيعود الأب ليعيش تحت سقف واحد مع أبنائه فى بيت يظلمه الاخلاص والهناء العائلى •
وتلك هى ترجمة الصفحة الأخيرة من هذه الرواية الريفية اللطيفة :

« وقالت بروليت باكية : واحسرتاه ! ايه يا جوزيف المسكين ! يارفيق صباى ! ماذا عسانا قائلين لأمه يا الهى ؟ »

فقال بوشوه (والد زوجها) فى أسى : « سنقول لها ألا تترك شارلو (الصبى الصغير الذى كانت ترعاه بروليت) يهيم حبا بالموسيقى • انها عشيقة شديدة القسوة بالنسبة لأمثالنا من الناس • ان رأسنا ليست على درجة كافية من الصلابة بحيث نتجنب الدوار فى الآفاق العالية التى تقودنا اليها ! »

« وصاحت تيرانس قائلة : ايه يا أبى ! لو تستطيع انت أيضا التخلي عنها • الله وحده يعلم أية تعاسة سوف تسببها لك ! »

وأجاب بوشوه الكبير قائلا : « اطمئنى يا عزيزتى • هانذا قد عدت ! اننى أريد الحياة فى الأسرة وأربى أحفادى الذين أراهم فعلا فى أحلامي يرقصون على ركبتى • أين سنقيم يا أولادى العزاز ؟ »

فصاحت تيرانس : حيشا تريد •
وأجابت بروليت : وحيث يريد أزواجنا •
وصحت أنا (زوج بروليت) : وحيث تريد زوجتى •

وقال هوريل (زوج تيرانس) بدوره : وحيث تريدون جميعا •

وقال بوشوه الكبير : حسن ! لما كنت أعرف

أمرجتكم ومقدرتكم وكنت قد أحضرت لكم معنى بعض المال فقد حسبت في الطريق أنه من السهل إرضاء الجميع • وإذا كنا نريد للمشمس أن ينضج فلا ينبغي أن تنزع نواه • تلك هي الأرض التي يملكها تينيه • سوف نسورها ونبنى فيها منزلا يكفينا جميعا • وسوف أكون سعيدا بانبثاق القمح وأن نكف عن اقتلاع الأشجار الظليلة التي منحنا الله إياها • وسوف ألحن الأغاني الصغيرة على الطريقة القديمة في المساء أمام الباب وسط أفراد أسرتي دون أن أذهب واحتسى نبيذ الآخرين أو أثير غيرة الغيورين • أما هورييل فيحب التجوال في البلاد ولزوجته الآن نفس المزاج • ولذا فسيأخذان مقاولات مثل مقالة هذه الغابة حيث أرى أنكم قد عملتم عملا طيبا فيها وسيذهبان لقضاء الفصل المعتدل في الغابة • وإذا سببت لهما أسرتهما الصغيرة بعض المضايقات فان تيرانس لها من القوة والعزم ما يجعلها تقدر على إدارة بيتين • وسوف نلتقي في بداية كل خريف بسعادة مضاعفة حتى اليوم الذي يجد فيه ابني ، وذلك بعد أن يكون قد أغض جفني الى الأبد منذ وقت طويل ، أنه يشعر باجته الى الراحة طوال العام كما أشعر أنا بهذه الحاجة في الوقت الحاضر »

« ان كل ما قاله حموى حينئذ قد حدث كما نصح وتنبأ به • فقد بارك الله طاعتنا وكما أن الحياة صحن لذيق مختلط بالأحزان والمسرات فان « ماريون » المسكينة كانت كثيرا ما تأتي لدينا لتبكي بينما كان « كارم » (أحد الأصدقاء) الطيب يأتي ليضحك »

* * *

إذا أردنا أن نصدر حكما على جورج ساند فلنستجرد تماما من أية فكرة سيئة قد تكون تخلفت

في نفوسنا من حياتها المأجنة الصاخبة • فهي نفسها قد ازدادت تعقلا مع الزمن ومرت بأطوار كثيرة • فاذا كانت في بدء حياتها رومانسية عنيفة لاتصور في كتاباتها الا ما كانت تشعر به من أحاسيس ومشاعر متأججة فقد تحولت شيئا فشيئا الى المثالية وكونت مدرسة أدبية كاملة وطابعا خاصا ستظل آثارها الأدبية تحمله • لم تكن ساند تعتقد أبدا في الواقعية التي تذهب الى حد تصوير الواقع الكئيب كما هو ، أو الى حد التشاؤم ، وكذلك لم تعتقد أبدا في نظرية الفن للفن • ففي رأيها لا بد أن يكون الفن في خدمة المجتمع وكذلك لا بد للفن من تجميل الحقيقة • ولذلك فقد وصلت الى الصورة النهائية التي ستظل تحمل طابعها وهي الرواية المثالية • لقد ركزت جورج ساند اهتمامها على مجتمعها الريفى في مقاطعة « بيرى » وفي قريتها الحبيبة نوهان • فراحت تدرس أوساطها المختلفة من عمال وفلاحين • كانت « سيدة نوهان الطيبة » كما كان يسميها مواطنوها تشعر في جميع فترات حياتها بأنها مجرد فلاحه من نوهان • كانت تحب الفلاحين ويحبونها وتغمرهم بعطفها ومساعداتها • ولذلك أرادت تصوير مجتمعهم في صورة أجمل وأنبى من الواقع ، أى في الصورة التي تراها هي بكل ما تشعر به من حب وعطف عليهم • كان مجتمعهم يبدو لها مثاليا ونفوسهم تبدو لها طاهرة عفيفة ، ومهما بدا منهم من قسوة منهم في دخيلة نفوسهم رفاق القلوب نبلاء المشاعر •

كانت جورج ساند ، حتى في مرحلة الصبا وفترة العواطف الجامحة ، تعتبر أن فنها فوق أى عاطفة أخرى • كانت تشعر أنها خلقت لتؤدي

رسالة ، وهذه الرسالة هي الأخذ بيد الناس نحو مجتمع أفضل وحياة أنعم • ولذا فقد رأيناها معا تتسلل ليلا وتترك صديقها هذا أو ذاك يغط في سباته العميق وتجلس لتكتب فصلا أو فصلين في أحد رواياتها • وكان ما تكتبه دائما يهز المشاعر والنفوس كنغمة جديدة واحساس نابع من أعماق النفس • كانت تشعر بأنها مكلفة برسالة سامية • وحين حانت لها الفرصة للتدخل في الحياة السياسية لم تتردد في الاندفاع في هذا المجال بكل قوتها • لكل هذه الأسباب ستظل ماري الصغيرة بطلة قصة « البحيرة المسحورة » وفاديت

بطلة « فاديت الصغيرة » وبروليت وجوزيف بطلا: « أساطين العزف على الناي » من الشخصيات الأدبية التي لا تنسى لمثالياتها وللإطار الشعري الجميل الذي يحيط بها •

ان جورج ساند المرأة قد خلدها التاريخ كقصة طريفة تستحق الدراسة ، أما جورج ساند الأدبية فقد خلدها الأدب لأنها كانت فنانة أصيلة ترى في وضوح الرسالة الانسانية التي يتعين عليها انجازها في الحياة •

كوثر عبد السلام البحيري